تكريم المغفور له أ.د. / فؤاد أبوحطب

بقلم الأستاذ الدكتور/ كمال دسوقي

وللآخرة خير لك من الأولى

أكبر درجات وأكبر تفضيلا

عُلُوٌّ في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات

لا يحول الحول على ذكرى انقضاء أجله في الحياة بيننا حتى تعطر أزاهير سيرة حياته الفيحاء أنوفنا وتحيي نفوسنا. حيث تؤتي أحطاب غرسه اليانعة أكلها لنجني ثمارها، وينقلب طول غيابه بجسده حضوراً غامراً بروحه المحلقة بيننا بالدفء والحنان، والأخوة والأبوة، والقيادة والريادة ويتحول عمق الشعور بفقده، والافتقاد إلى ريادته، والاقتداء به في تتبع خطاه، والنسج على منواله، واستلهام روحه في استهداف تحقيق طموحاته وآماله.

ليصدق عليه أولاً وآخراً قول المجمعي الجيولوجي (في كرسي طه حسين الذي كان ينعت مصطلحاته بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة) محمد يوسف حسن في رثاء أستاذه وصديقه المهندس المعلم الشاعر إبراهيم أدهم الدمرداش (٧ يوليو ١٩٧٨):

وما العلماء ان قبروا بموتيَ

فذكرهم على الأيام باق

لقد كانت عبقريات أبو حطب في الخروج من دعواتي التفكيك والتكتيل بين علم النفس والفلسفة التي انتهت بفصل علم النفس أكاديمياً ومؤسسيا في كليات الآداب، وفض اشتباك التربية وعلم النفس – بالربط بينهما – علمياً ومهنيا في كليات التربية، ومن ثم قضاؤه على الازدواج المصطنع بين العلمين التوأمين في الكليتين الشقيقتين، وإثراء جمعيته المصرية للدراسات النفسية بربط تواصل الأجيال روحيا

وعقائديا، وإرساء القاعدة العلمية وطنيا وقوميا وعالمياً – بصرف النظر عن تحقق اتصال او استقلال السيكولوجيين والتربويين مؤسسيا ومهنيا: في تشـــكيل اللجـــان العلمية الدائمة بالمجلسين الأعلى للجامعات والأعلى للثقافة، ومجمع اللغة العربيـــة، ومعاهد البحوث العلمية والتكنولوجية...لأن هذه العبقرية في الخروج من الكثرة إلى الوحدة، من الانقسام والتنوع إلى الإندماج والتكامل، كانت خالصة لوجه الله والوطن – لم تلبث أن انتهت بالمخلصين من علماء النفس المؤمنين بوحدة التخصـــص إلـــى تولي مواقع المسئولية في كليات الآداب والتربية ولجان المجلس الأعلى للجامعـــات والمجلس الأعلى للثقافة، ومراكز البحوث التربوية، والتقويم والامتحانـــات...وفـــاءً بحق زميلهم الراحل الذي صح عزمهم على ان يردوا عليه فضلة جهاده في ســـبيل إعلاء شأنهم وتكريم روادهم وتبني شبابهم...وقد جاء الآن دورهم إذ انقطـــع مـــدد تكريمه لهم أن يرشحوه لجائزة الدولة التقديرية التي لم يكن يتـــوانى عـــن تزكيـــة المستحقين منهم لها ولو كانوا أحدث منه أقدمية أو أقل إنجازاً وهكذا يصـــدق قـــول الحطية:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

لقد حوى ترشيحه لجائزة الدولة التقديرية الذي قدمتـــه لمجمـــع اللغـــة العربيـــة لانتخابه عضواً عاملاً، الذي يسرد في إحدى وثلاثين صفحة بيان سيرته الذاتية: في عشر خطوات تدرجه الوظيفي من مدرس بالتعليم العام (١٩٥٨) حتى أستاذية علـــم النفس المتفرغ الحالية، سبع بعثات دراسات عليا في جامعة لندن، إعارات طويلة أو مهام قصيرة كأستاذ مشارك وأستاذ زائر وأستاذ ورئيس قسم تربية بجامعـــة لنـــدن وبوسطن وأم القرى والسلطان قابوس، خبير ومستشار المنظمـــة العربيـــة للتربيـــة والثقافة والعلوم لتطوير الامتحانات بدولة الإمارات (١٩٨٠) ومنظمة اليونسكو في شئون الأطفال الموهوبين والمتفوقين بدولـــة قطـــر (١٩٨٣)، فثمـــاني عضـــويات مجالس تحرير مجلات علمية عربية ودولية، وعشرين مشـــاركة فـــي اجتماعـــات وندوات ومؤتمرات عربية وعالمية، واثنين وعشرين "جهد علمي وعملي" عام فـــي إنجلترا وايرلنده ومصر" ما بين رئاسة اتحاد طلاب، ولجنـــة مبعـــوثين، وتطـــوير

تعليم، وخبرة مصطلحات، ولجان ترقيات، وإنشاء معامل قوات مسلحة وجامعات عربية وجمعيات دراسات نفسية ومراكز تقويم تربوي وامتحانات، واتحاد دولي ولجنة اختبارات وتسعة وعشرين مؤتمر علم نفس وإعداد معلمين إقليمياً ودولياً، وتسع مشروعات إنشائية وإشرافية لمراكز وبرامج ومعامل إعداد وتطوير وتقويم.

أما عن "الإنتاج العلمي" فقد أورد بيان سيرته الذاتية الحافلة بالعطاء عناوين إحدى وسبعين من الدراسات والبحوث بالعربية والإنجليزية وعشرة اختبارات نفسية للذكاء والمعلومات، والميول والاتجاهات، والتفكير الابتكاري، والبروفيل الشخصي والقياس العاملي، واثنى عشر من الكتب والفصول المؤلفة وثلاثة كتب وفصول مترجمة وأحد عشر من الكتب المحررة التي درس عليها تلاميذه في مصر والعالم العربي.

أما عن جهد أشرافه على الرسائل العلمية فنجد ثلاثين رسالة ماجستير وثلاثين رسالة دكتوراه. وكل هذا هو ما وصل إليه استكمال سيرته الذاتية التي نشرت بالموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة التي أصدرتها الهيئة العامة للاستعلامات في طبعتها الثانية عام ١٩٩٢ التي قدمت كمؤهل لترشيحه لجائزة الدولة التقديرية بالمجلس الأعلى للثقافة وكذلك لعضوية مجمع اللغة العربية. وان ما أنتجه طيب الذكر المرحوم أبو حطب يعد هذا التاريخ لكثير. فقد عاجلته المنية واختطفه الموت وسيرته الذاتية كتاب مفتوح لا يزال يضاف اليه الكثير – من مؤتمر الجمعية السادس عشر بالسويس عام ٢٠٠٠م حتى احتفالية تكريم الآباء بمؤتمر جامعة الزقازيق العلمي قبل رحيله بيومين الذي كان مهرجان الاحتفاء به على رأس حواريه ومحبيه.

ولما لم يكن الراحل العظيم قد نال من الجوائز والأوسمة والميداليات التكريمية خلال حياته المهنية الطويلة سوى جائزة الدولة التشجيعية في علم النفس عن كتابه الجليل "القدرات العقلية" في طبعته الأولى عام ١٩٧٣ وكذا وسام العلوم والفنون من الطبقة الاولى عام ١٩٧٥، ونظراً لانشغاله في تجرد ونكران ذات بتكريم رواد علم النفس بمؤتمرات جمعيته السنوية كل بدوره واحداً بعد آخر، فإن منحه عقب وفاته جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية يعد وفاء بحقه على الدولة في إرساء

قاعدة علمية توسع بها من الوطنية المصرية إلى القومية العربية فالعالمية الدوليـــة، ووفاء من زملاء التخصص ورفاق الدرب لشخصه المتفانى في خدمة التقدم العلمي والنهوض التربوي تقر به عينه وتطمئن نفسه إلى استمرار مســيرته مــن بعــده. والأهم من هذا كله أن يستقر في وجدان كل من يتخذه من أفراد الجماعــة العلميــة مثلا أعلى يترسمه أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأن خادم القوم ســيدهم، وأن من تواضع لله رفعه...فالذي اخترقه الموت ولما يتم رسالته سوف يلقــى مــن التكريم والتقدير ما لم يلقه الذي طال عمره وحسن عمله ولقي الثواب فــي حياتــه. وربما تمنى كل من اختطفه الموت مثله قبل أن يتم تكريمه لو أنه قــد ســبقه إلــى الموت لكي يجئ تكريمه بعد الموت هكذا أكثر احتفاء وتخليداً – ولــو أنــه كــان المرثي وليس الرائي – على نحو ما أنشد أمير الشعراء أحمد شوقي في رثاء شاعر النيل حافظ إبراهيم، وقد توفى شوقي بعد حافظ بشهور (أكتــوبر ١٩٣٢) القصــيدة التي استشهدت بمطلعها في نعي فقيدنا أبوحطب يوم وفاته:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي

يا مُنصف الموتى من الأحياء

لكن سبقت وكل طول سلامة

قدر، وكل منية بقضاء

الحق نادى فاستجبت ولم تزل

بالحق تحفل عند كل نداء

بل أن هذه الأمنية لتظل تداعب كل من اختطفه الموت غيلة وغدراً إثر حــادث اليم – على نحو ما تمنى عضد الدولة لو أن مرتبة أبي الحسن الأنباري بوزير عز الدولة بن بويه أبي طاهر محمد بن بقية (الذي كان قد أغراه علــى غــزوه، فقتلــه عضد الدولة وصلبه أمام داره بباب الطاق ببغداد) ...ولما سمع رثاءه تمنى لو أنــه كانه هو المصلوب وأن القصيدة قيلت في رثائه هو – كما جاء في "وفيات الأعيان" لابن خلكان – القصيدة التي استشهدت بمطلعها في فاتحة هذا الحفل التكريمي لفقيدنا الحاصل على جائزة الدولة التقديرية – وهي:-

علو في الحياة وفي الممات

لحق أنت إحدى المعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا

وفود نداك أيام الصلات

كأنك قائم فيهم خطيباً

وكلهم قيام للصلاة

مددت يديك نحوهم احتفاء

كمدها إليهم بالهبات

ولما ضاق بطن الأرض عن أن

يضم علاك من بعد الممات

أصاروا الجو قبرك واستعاضوا

عن الأكفان ثوب السافيات(*)

وحيث الإنسان في الدنيا منهى عن تمنى الموت لينال التكريم في الآخـرة أكثـر حفاوة وتخليداً، كما هو منهي عن الفرار من الموت ليرد عقب ملاقاته ويفوز بثواب عالم الغيب والشهادة جزاء وفاقاً؛ فسواء تمنى انقضاء الأجل ووقوع المنيـة قبـل بلوغ الهدف ونوال التكريم الإلهي عوضا عن طول السلامة وامتـداد العمـر مـع تواصل احتفاليات التكريم الدنيوي الذي يذبل ويفنى قبل فناء المحتفى به كأنما ليحثه على الرحيل؛ ولأن الله وحده الذي تفرد بالبقاء، وحكم على عباده بالموت والفنـاء، فكتب لكل نفس أجلاً لا تجاوزه عند الانقضاء، وسوى فيه بين الشريف والمشروف، والأقوياء والضعفاء كما يتقدمه وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان..فكثيـراً مـا لا تتحقق أمنية المرء أن يكون السابق أو اللاحق، الراثي أو المرثى، المكرم في الدنيا أم الآخرة أم فيهما معاً، ولا يملك الفاني حينئذ وهو يواجه الموت غدراً وقد تحقـق من الهلاك ألا أن يرثى نفسه وقد انقطع عنه الأهل والخلان فلا يجد من يبكيـه أو يحفر له قبره أو يبلغ عنه أصحابه ورفاقه أو يعينه على أن يموت ميتـة كريمـة –

(*) الرياح وهي تسعى الغبار والأتربة.

كما في سلسلة "شعراء يرثون أنفسهم" الذين كتب عنهم في جريدة الحـج السـعودية المجمعي الأديب اللغوي العزيق مصطفى حجازي مدير إصدارات معاجم الـوجيز والوسيط والكبير، من أمثال مالك بن الريب، وأفنون التغلبي، وعبـد يغـوث بـن وقاص.

كان مالك بن الريب قاطع طريق في جماعة من أصحابه، فمر بـه سـعيد بـن عثمان بن عفان حين ولاه معاوية على خراسان، فقال سعيد ويحك يا مالك: ما الذي يدعوك إلى ما بلغني عنك من العداء وقطع الطريق؟ فأجـاب مالـك: أصـلح الله الأمير، العجز عن مكافأة الإخوان، قال سعيد: فإن أغنيتك وأصلحتك، أتكـف عمـا تفعل وتتبعني ؟ قال: نعم، فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينار كل شهر، وبقى مع سعيد إلى أن قتل في خراسان تاركاً مالك يتعذب في مرضه وغربتـه ويمـوت بعيداً عن وطنه وأهله – حيث يقول في مطلع رثائه لنفسه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة

بجنب الغضا أزجى القلاص النواجيا(١)

فليت الغضاء لم يقطع الركب عرضه

وليت الغضا ماشي الركاب لياليا(٢)

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى

وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

فلله دري يوم أترك طائعا

بني بأعلى الزقمين رماليا

تذكرت من يبكى علي فلم أجد

سوى السيف والرمح الرديني باكيا

---

(١) جمع غضاة، شجر من الأثل خشبه صلب وجمره يبقى طويلا لا ينطفئ فهو من أجود الوقود عنـد أهـل الغضا، سكان نجد.

(٢) القلاص النواجيا: النوف طويلة القوائم سريعة السير الناجية بركابها.

ومن قديم كان أفنون التغلبي الجاهلي قد أتى كاهناً وسأله عن موته فقال له إنك تموت بمكان يقال له الألاهة. فمكث إلى أن سافر بعد زمن في ركب من قومه إلى الشام فأتوها ثم انصرفوا وضلوا الطريق وسألوا كيف نأخذ طريقنا فقيل لهم سيروا فمتى رأيتم كذا وكذا استقام لكم الطريق ورأيتم الألاهة – وهي موضع في السماوة. فلما أتوها نزل أصحابه وأبى هو أن ينزل عن ناقته. وبينما ناقته ترتع لدغتها حية في مشفرها فأحتكت الناقة بساقه والحية متعلقة بمشفرها(٣) ولدغته لدغة الموت. فقال لأخ له اسمه معاوية احفر لي قبراً فاني هالك، ورفع صوته بهذه الأبيات:

ألا لست في شئ فروحاً معاويا
ولا المشفقات إذا اتبعن الحوازيا(٤)
فلا خير فيما يكذب المرء نفسه
وتقواله للشئ ياليت ذا ليا
فطأ معرضا إن الحتوف كثيرة
وانك لا تبقى بمالك باقيا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي
إذا هو لم يجعل الله واقيا
كفي حزنا أن يرحل القوم غدوة
وأصبح في أعلى ألاهة ثاويا

وأما عبد يغوث بن الحارث وقاص الكلابي الذي كان قومه بنو سعد قد أسلموه إلى قبيلة الرباب ليقتلوه ثاراً، فأخذه عصمة بن أبير التيمي ليقتله، وقال عبد يغوث: يا بني تيم : اقتلوني قتلة كريمة، فقال له عصمة: وما تلك القتلة؟ فقال اسقوني الخمر ودعوني أنح على نفسي، فأجابوه إلى ما طلب وقال يرثى نفسه بأبيات هي أيضا من البحر الطويل وقافيه الياء –سبحان الله:

---

(٣) المشفر : شفة البعير.

(٤) الحوازي: الكهان

ألا لا تلوماني كفي اللوم مابيا

فما لكما في اللوم نفع ولا ليا

ألم تعلما أن الملامة نفعها

قليل وما لومي أخي من شماليا

فياراكبا إنما عرضت فبلغن

نداماتي من نجران أن لا تلاقيا

طبت حيا وميتا أخي فؤاد. فلم تك بك حاجة لأن ترثي نفسك أو يبكيك الراثون أو يحتفى بك المكرمون. فللآخرة خير لك من الأولى وقد ودعـك ربـك ومـا قلـى، وللآخرة أكبر درجات واكبر تفضلاً لمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مـؤمن فكان سعيه مشكوراً وأمده الله اكثر ممن أراد الدنيا وحدها – بالمزيد من العطـاء. فلا أختتم تكريمك اليوم بأفضل مما استودعت به الله شيخنا حبيبك إبراهيم مـدكور في "بكائية مجمع الضاد" الذي كان قد تأهـل لاسـتقبالك كمـا المجـالس القوميـة المتخصصة:

عليك سلام الله في منزل الأبرار

والشهداء بجنات عدن الريّض

وقبراً ثويت به يجلله الرضوان

ما قصف الرعد سنا برقه ومض

وذكراك تبقى في محبيك حتى يوم

نلقاك – ما بالقلب ضخ دم نبض